

مجلة أنثروبولوجية الأويان (المجلد 16 العدد 02 بتاريخ 2020/06/15)

ISSN/2353-0197

EISSN/2676-2102

ظاهرة السحر بين ثلاثية المعتقد الدين والعلم

The phenomenon of magic between the tripartite beleif religion and science

د/إسعد فايزة زرهوني¹

Issad Faiza Zerhouni

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم-

zerhounifaiza@yahoo.fr

University of abdelhamid ben badiss –mostaganem-

تاريخ القبول: 2020/04/11

تاريخ الارسال: 2019/12/13

ملخص:

يعتبر السحر من أهم المعتقدات التي لازمت الإنسان منذ ميلاده، وفي مختلف الحضارات القديمة التي كانت تستعين به لتحقيق أغراض عديدة، تختلف باختلاف طبيعة الأمر المراد الوصول إليه . ولقد اتخذ هذا السحر عدّة مظاهر وطقوس وممارسات جعلت منه يكتسي أهمية كبيرة، ونحن من خلال هذا المقال سوف نحاول توضيح هذه الأهمية التي كان يحظى بها السحر في هذه المجتمعات، ونحاول أيضا إظهار كيف أن هذا الأخير انتقل عبر سيرورته التاريخية من مجرد أفكار إلى اعتقادات يصعب تجاهلها أو محوها . إلى جانب تبيان حكم الديانات الثلاثة من السحر، وإبراز مختلف رؤى المنظرين حول ماهية السحر وقيمتها كمعتقد قديم يعود إلى حقب تاريخية صحيحة .

كلمات مفتاحية: السحر، الأسطورة، الدين، المعتقد، العلم .

Abstract:

Magic is one of the most important beliefs that man has experienced since his birth, and in the various ancient civilizations that he used to achieve many purposes, different depending on the nature of the thing to be reached. We have tried to illustrate the importance that magic has had in these societies, and try to show how the latter has moved through its historical

¹- المؤلف المرسل: د/إسعد فايزة زرهوني zerhounifaiza@yahoo.fr

process from mere ideas to beliefs that are difficult Ignored or erased, as well as various visions of theorists about the nature of magic and its value as an ancient belief dating back to the historical periods abysmal.

Keywords: magic, myth, religion, belief, science .

مقدمة:

اعتقد الإنسان منذ القدم بوجود قوى خفية تجانبه وتحاصره وتحاول النيل منه، وهذه المكونات الغامضة وغير المرئية ترتبط بقوى شريرة وأخرى خيرة، يحاول الإنسان جاهدا استرضاءها واتقاء شرّها بتقديم القرابين والهدايا، وإقامة طقوس معينة مرتبطة خصيصا بهذه الممارسة .

فخوف الإنسان من المجهول ومن بعض الحيوانات، وتأكّده من ضعف قدرته على مجابهتها وكذا جهله لحقائق كثيرة مرتبطة بالحياة والموت وما يشابه ذلك، جعلته يعيد النظر في الكيفية والطريقة التي يتعامل بها إزاء هذه الأرواح، فكانت هذه البدايات الأولى لفكرة السّحر ونشأة الكهنة والدين .

إن التزاوج الكائن بين كل من السحر والدين أفرز بدوره اعتقادا ماثلا وراسخا، مفاده أن قدرة الإنسان مهما بلغت ذروتها، تظلّ عقيمة أمام ما تتمتع به تلك القوى الخفية .

وحينما استعصى على الإنسان إيجاد حلول للكثير من المشاكل الاجتماعية عاقبة والنفسية خاصة، والتي أصبحت على درجة من التقدّم والتعقيد، عاد هذا الأخير من حيث بدأ تاريخ البشرية، إلى ممارسات وطقوس معينة تصبّ كلها حول اسم السّحر والشعوذة، بحثا منه عن مخرج لما آلت إليه أحواله، وطنا منه أنه مثل هذه الممارسات تسمح له بالانتقال من مرحلة لأخرى .

ويعتبر السحر كمعتقد، المحرك الرئيسي لسلوكات الأفراد، والسبب وراء توجهاتهم وتطلعاتهم نحو أمور معينة، تجعل منه في مصاف العلم والدين من حيث الأهمية والإيمان والاعتقاد، بدليل أن الفرد الذي يعتقد في هذا النوع من الممارسات يبقى مذهولا وغير قادر على التمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب وكأنه مشلول التفكير والإدراك، همه الوحيد التعلق بمثل هذا المعتقد والتمسك به في سبيل الخلاص من الهموم والمشاكل التي تكابده، مع إغفال العقل والمنطق في الكثير من الأحوال والظروف وفي هذا الصدد يقول محمد الجوهري أن "المعتقد الشعبي مقاومة للتغيير، وأعصاها استجابة للتجديدات وأميلها للاستمرار والثبات، وهذا ليس صفة سحرية غامضة، ولكنه أمر مفهوم يمكن تبريره في أمور خبيثة في صدور الناس أو في لاشعورهم وإذا خرجت للممارسة اليومية، أو أفصحت عن نفسها في سلوك فإن ذلك يكون على استحياء شديد، وبين

الفرد ونفسه أو بين المرء وخواصه، أو في دائرة محدودة أشدّ التحديد، وتتجمع في صدر من يؤمن بها حتى تتركّز ثم تنطلق في صورة سلوك، وتؤدي بشكل خاص أو سريع متعجّل تحيطه في أكثر الأحيان إمارات رهيبة وعلامات حرص زائد "(محمد الجوهري، 2007، ص361)

أولاً: تعريف السّحر وأنواعه :

"يطلق السحر في لغة العرب على كلّ شيء خفي سببه ولطف ودقّ، لذلك تقول العرب في الشيء الشديد الخفاء: أخفى من السحر، وتصف ملاحظة العينين بالسّحر، لأنها تصيب القلوب بسهامها في خفاء. وسمي السحور سحورا لأنه يقع خفيا آخر الليل، والسّحر الرّثة وهي محلّ الغداء، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن، وتطلق العرب السّحر على الخديعة، لأنه يخفي سببها ويدقّ ومنه قول لبيد بن ربيعة :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصفير في هذا الأنام المسحّر" (عمر سليمان الأشقر، 1997، ص29)

"كما يوصف البيان بالسّحر ومنه قول الرسول (ص): إن من البيان لسحرا" (الإمام البخاري). وفي المعجم الوسيط السّحر كلّ أمر يخفي سببه ويتخيّل على غير حقيقته، ويجري مجرى التّمويه والخداع وكلّ ما لطف مأخذه ودقّ". (المعجم الوسيط، ص435)

"وذكر ابن فارس في مقاييس اللغة أن السحر السّين والحاء والراء أصول ثلاثة متباينة، أحدها عضو من الأعضاء والآخر خدع وشبهة والثالث وقت من الأوقات، وأما الثاني فالسحر، قال قوم: هو إخراج الباطل في صورة الحق". (ابن فارس، دت، ص138)

"وفي كشاف اصطلاحات الفنون: أن السّحر بالكسر وسكون الحاء المهملة ، هو فعل يخفي سببه ويوهم قلب الشيء عن حقيقته، كذلك قال ابن مسعود في كشف الكشّاف: السحر في أصل اللغة الصّرف، حكاه الأزهري عن الفراء ويونس وقال: وسمي السّحر سحرا لأنه صرف الشيء عن جهته، فكأن الساحر لما رأى الباطل حقا، أي في صورة الحقّ، وخيّل الشيء على غير حقيقته، فقد سحر الشيء عن وجهه أي صرفه وذكر عن الليث أنه عمل يتقرب به إلى الشيطان ومعونة منه وكلّ ذلك الأمر كينونة السّحر" (محمد بن علي التهانوي، دت، ص344)

ولقد اهتم العلامة ابن خلدون بهذه الظاهرة مؤكداً على حقيقتها كظاهرة اجتماعية فقال: "السحر علم بكيفية الاستعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات". (عبد الرحمان ابن خلدون، دت، ص 923) ويضيف أيضاً: "أن نفوس السحرة لها خاصية التأثير في الأكوان، واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية". (عبد الرحمان ابن خلدون، دت، ص 496)

كثيرة هي التعاريف التي قدّمت عن السحر تختلف من حيث المعنى اللغوي والاصطلاحي والاجتماعي، ولكنها تلتقي عند اعتبار السحر "محاولة من الإنسان لترويض الطبيعة والآخرين تبعاً لمشيتته وإرادته، أو محاولة السيطرة على القوى المحيطة به بواسطة ممارسات معينة" (رياض عبد الرحمان الدوري، 2006، ص 157).

ومهما اختلفت التعاريف حول السحر ولكنها تبنى على رأي واحد هو أن السحر قائم على المكر والخديعة والحرمات والشرك بالله وكتابه، يستدعي من خلاله السّاحر القوى الخفية (الجن) من أجل تحقيق رغبات دنيوية معينة يعجز الإنسان على تحقيقها في الواقع، فيؤممه بالقدرة على ذلك من خلال اللجوء إلى التمويه والكذب والتحايل. ويجد الإنسان نفسه عندما يتعلق الأمر بالغيبيات والمستقبل ضعيفاً، فيقل إيمانه وتستهيو نفسه اللجوء إلى السحرة. ولأن الإنسان يعيش في عالم تحيط به ضغوطات الحياة يصبح غير قادر على تحمل هذه الضغوط ويبحث عن طريقة ووسيلة وإن كانت غير شرعية ومرفوضة دينياً واجتماعياً لإيجاد حلول لهذه المشاكل اليومية. ويعتبر السحر ظاهرة اجتماعية عرفها الإنسان منذ العصور البدائية ولجأ إليه في مختلف الأزمنة والحضارات ولم يقتصر على فئة معينة بل لجأ إليه الأفراد من جميع أطراف المجتمع ولكن طبيعته اختلفت وفق البنية الثقافية والاجتماعية والدينية لكل مجتمع. وفي الوقت الذي لا يجد فيه بعض المنظرين فروق أو اختلافات بين السحر والشعوذة، نجد البعض الآخر يشدد على هذه الاختلافات ويعتبرون "الشعوذة حيل وخداع وتضليل ليست من السحر المقصود حقيقة، لأنها تتم دون الاستعانة بالأشياء التي يقولها السّاحر ويعتمد عليها في سحره، فهي أقرب إلى أن تكون حركات خفة تعتمد على المهارة والسرعة في عمل الأشياء، وحيل وتمويه مع خداع لبصر الرائي وجعله يرى أشياء ليست موجودة" (محمد زهير الحري، 1985، ص 120-122).

وتقول سامية حسن الساعاتي أن السّحر كان معترفاً به كعلم يدرس في مدارس المعابد، ويطلق عليها بيوت الحياة، بجانب الطب والكهنوت، ويحمل السّحر الذي يصّرح له بمزاولة المهنة شهادة من المعبد، ولا يسمح له بمزاولة المهنة بدونها" (سامية حسن الساعاتي، 1980، ص38).

وعموماً ومما سبق يمكن القول أن السّحر عمل شيطاني له علاقة بعالم الجنّ، يقوم به السّاحر من أجل تحقيق أمور دنيوية معيّنة ويوهم الناس أنه سيساعدهم على تحقيق مآربهم وهو متعلق بأعمال الشرّ.

ثانياً: أنواع السّحر

لقد عرفت أنواع السّحر تقسيمات عديدة، كل حسب الوجهة التي كان ينظر إليها من طرف الباحثين والمهتمين بهذا الشأن "فيقال أن هناك نوعين من السحر هو السحر الأبيض وهو ذلك السّحر الذي يستخدم لزيادة الخير للمتمرسين به دون إيقاع شرّ على الآخرين، والنوع الثاني هو السّحر الأسود الذي يقصد به إيقاع شرّ على الآخرين". (يوسف ميخائيل أسعد، 2006، ص27)

أما رانيا رجب شعبان فلقد قسمت أنواع السّحر إلى سبعة أقسام (رانيا رجب شعبان، 2004، ص24-26):

- القسم الأول: سحر الكذّابين والكشّدانين الذين تواجدوا في قديم الدّهر، عبدوا الكواكب وزعموا أنها هي المتحكّمة في العالم والمسيرة لشؤونهم وقد بعث الله تعالى إليهم إبراهيم عليه السلام مبطلا لاعتقاداتهم وأقوالهم.
- القسم الثاني: سحر المتوهمين وذوي النفوس القوية، لأن النفس دائماً تتبع الأوهام.
- القسم الثالث: طبقاً لفخر الدّين الرازي فهو طلب مساعدة الأرواح الأرضية أي الجن بنوعيه: المؤمن والكافر.
- القسم الرابع: التخيلات والأخذ بالعيون والسّحر والشعوذة، حيث أن المشعوذ أو الساحر يذهل من ينظر إليه ويخطف بصره، ويأخذ عينه ويعجب الناظر بهم وبما يقدمونه من خوارق، التي توهم بصحتها وحقيقتها.
- القسم الخامس: يعتمد على الاختراعات والمركّبات الهندسية والأدوية والدّهانات.
- القسم السادس: السّعي بالنميّة.

- القسم السابع: تعليق القلوب: حيث يدّعي السّاحر بمعرفة أكبر الجان وأعظمهم. وأنهم يطيعونه ويلبّون نداءاته وأوامره، ويعتقد الناس أن ذلك حقيقة وفعلاً. فيخافون منه ويضعفون أمامه وبذلك يتحكم بهم ويوجههم كما يريد.

وهناك تصنيف آخر لأنواع السّحر يتمّ عبر ثلاث أنواع رئيسية:

أ- سحر التخيل: والذي يسعى من خلاله السّاحر إلى قلب الحقائق، فيؤثر في المسحور الذي يصبح يتخيل أشياء غير حقيقية ولا أساس لها من الصّحة، كأن يرى المسحور الشخص على غير هيئته صورة أو صفة ويبقى شاردًا ونظراته غير طبيعية، إلى جانب الدهشة والاستغراب اللذان يرافقان هذا المسحور. تماماً مثلما حدث مع قصّة سيدنا موسى عليه السلام مع سحرة فرعون.

ب- سحر التأثير: "يغدّ هذا النوع أشدّ أنواع السّحر معرفة وتأثيراً سواء على مستوى العقل أو الجسم أو القلب وهو عبارة عن عزائم ورقى وعقد وطلاسم شيطانية." (شحاتة صيام، 2009، ص79). تستعمل كلها بالاستعانة بالشياطين من الجنّ والإنس بهدف التفريق بين الأزواج والأحباب وتعطيل مصالح الناس والسعي في إبطالها.

ج- السّحر المجازي: وتتميّ كذلك لاشتراكه في المعنى اللغوي للسّحر، وهو يقوم على الشعوذة والدّجل واستعمال المواد الكيميائية والعلمية للتمويه والخداع.

ثالثاً: طبيعة السّحر في بعض الحضارات القديمة:

لقد أكّد مجمل الباحثين في هذا الشأن على أن السحر بعيد الغور والظهور، مستبدلين على مجموعة من النصوص الموجودة في نقوش وآثار الحضارات العتيقة، التي آمنت بالسّحر ومارسته وجعلته من أولوياتها، وأولته العناية الفائقة باستعمال الرموز والتعاويد والأساطير.

1- حضارة وادي الرافدين:

اشتهرت "بابل" بممارسة السّحر ، الذي اعتبر وسيلة للتواصل مع الآلهة، لذلك استخدمه الكهنة في المعابد كجزء من الدّيانة ، وفي ذلك يذكر أبو بكر الرازي المعروف بالخصّاص "أن أهل بابل كانوا صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسموها آلهة، ويعتقدون أن حوادث العالم كلها من أفعالها، وهم معطلة لا يعترفون بالصانع الواحد المبدع، وكانوا يعبدون أوثاناً قد عملوها على أسماء الكواكب السبعة، وجعلوا لكل واحد منها هيكلًا فيه صنمه، ويتقربون إليه بضروب من الأفعال على حسب اعتقادهم فعل خير أو شرّ" (عمر سليمان

الأشقر، 1997، ص16). كما اعتقد البابليون والكلدانيون أيضا من وراء استعمالهم للسحر، الحصول على المنفعة المتنوعة، كاحتفاظ الدائم بالشباب، فضلا على أنهم ربطوا السحر بالتنجيم والتطلع إلى الغيبيات، والتنبؤ به، والتي كانت موكلة لكل من الآلهتين: أدد وشمس، وكان للملك مجموعة من العرافين ملحقين بالقصر لتفسير الأمور المطلوبة منهم، وذلك بعد أداء اليمين شأهم شأن الموظفين الآخرين، ما ينم عن القيمة التي أرفقها البابليون للسحر، حتى جعلوه مهنة ووظيفة رسمية، يؤجرون عليها ويحاسبون في حال تقصيرهم عن أداء مهامهم على الوجه المطلوب.

"وكان السحرة الكلدانيون يعولون في أعمالهم السحرية على حركات هذه الكواكب وأوقاتها وتقابلها وابتعادها وكل ما يتصل بها، وذلك لاعتقادهم الراسخ بتأثيرها على حياة الآدميين" (محمد محمد جعفر، 1958، ص13).

لقد جرّ هذا الأمر الكلدانيون إلى اعتقادات وممارسات سحرية ارتبطت بأفكارهم حول هذا الأمر، وجعلوه من مهام الكواكب المسؤولة عن مختلف أمور الحياة من حمل أو تحسين المستوى الاقتصادي والتجاري وحتى العلمي،، وأيضا الخلافات العائلية والإجرام . و"قد حفظ آشور بانينال ملك آشور من عام 668 إلى 626 ق م في مكتبته كثيرا من النصوص الدينية والسحرية، وقد جمع هذه النصوص من المعابد المختلفة، التي كانت منتشرة في المدن القديمة، وكان أغلبها مكتوبا باللغة السومرية" (أحمد الشنتاوي، 1957، ص10). وعلى غرار المجتمعات القديمة، فقد اعتقد العراقيون القدامى في القوة التي تمتلكها الأرواح الشريرة، وأنها المتسبب الأول وراء حدوث الكوارث والمصائب، التي لا يمكن تجاوزها أو درء شرّها إلا عن طريق الاستعانة بالتعاون التي كانت ميوّبة ومصنفة في لوحات كل حسب التأثير الذي تقوم به والعمل المطلوب منها إلى جانب الاستعانة بدماء الطيور في الأعمال السحرية مع حرمة أكل لحوم هذه الطيور. "فالعالم السحري مليء بالإشارات والأشكال التي تعتبر رموزا أو تمثيلات، تشكل القوة الخيرة أو الشريرة، تعطي لمن يكتسبها قدرة خاصة" (Bannefoy Claude, 1964, p36).

فالإنسان في الحضارة البابلية القديمة كان لا يكاد يفارق السحر في كل أطوار حياته وفي مختلف المواقف التي تصادفه، ومختلف الأحوال التي يمرّ بها، " حتى بناء البيوت كان يتم حسب طقوس سحرية، ووضعت في أسس المعابد والمباني العامة أشياء ضدّ العناصر الشريرة، وصارت في عصور لاحقة مصحوبة بتقديم أضاح،

ودفنوا عند أبواب البيوت الحروز وتمثال الآلهة والعفاريت والحيوانات لحماية أصحابها من أرواح الشرّ (محمد محمد جعفر، 1958، ص78).

إن ممارسة البابلي للطقوس السحرية في هذه الحضارة كان من باب اتقاء شرّ الأرواح الخبيثة واجتلابها في جانبه لحمايته، وتستعمل عند الزواج وعند ميلاد الأطفال، وعند إقامة شعائر الدفن للاستشفاء، للتبرّك، وغيرها من الأمور المماثلة، وباعتلاء الحظ يوميات هذا الإنسان تستقيم معه الحياة، وإذا مال مالت عليه الدّنيا وأوصدت في وجهه كلّ الأبواب والمنافذ.

2- الحضارة الفارسية:

"يبدأ تاريخ السّحر والسّحرة منذ خمسة آلاف عام ق.م، عندما وضع أسسه السّاحر الكبير زوروستر في بلاد فارس" (محمد محمد جعفر، 1958، ص11). وقد قام زوروستر بحفظ جميع المبادئ السحرية في كتابهم المقدس "الأفستا". وكان الفرس يعتقدون بأن الرّاية المزركشة التي كان يرتديها الملك كسرى، والتي كانت منقوشة بطلاسم ذهبية من طرف السّحرة، السّبب وراء انتصارات هذا الملك على أعدائه، حيث وضعت هذه الرّاية المنقوشة لضمان نصرة الفرس حسب اعتقادهم في جميع الحروب والمعارك. ويذكر الجصاص "أن الفرس كانوا في بداية أمرهم على التّوحيد، فلما استولى بعض ملوكهم على مدينة بابل، أخذوا يتدينون بقتل السّحرة ولم يزل هذا دينهم حتى حدثت فيهم المجوسية" (أبو بكر الرازي، دت، 44/1). ولقد كانت هذه بمثابة البداية لوجود عدّة ديانات في هذه الحضارة، من خلالها كان الفرد الفارسي يقوم بشعائر وطقوس دينية وأخرى سحرية تبين طبيعة تفكيره ورؤيته للأمور. ومن بين الديانات التي كانت موجودة نجد: الدّيانة المازديّة، الدّيانة الزرادشتيّة، فضلا على الدّيانة الماجوسية.

3- الحضارة الفرعونية:

تعدّ مصر هبة النيل على حدّ تعبير المؤرخ اليوناني "هيرودوت"، ومهد الحضارة الإنسانية نظير الجهود التي بذلتها في سبيل اعتلاء قمة الحضارة، ونظير الإنجازات التي خلّفتها، والتي جعلت منها أرقى الحضارات البشريّة. "وكانت مصر القديمة موطن الفنون والصناعات المختلفة، ويستدلّ على تاريخ هذه الفنون والصناعات لأنه لم تكن تتم أية عملية من العمليات الصّناعية أو الكيميائية إلّا بمصاحبة بعض الصّيغ الدّينية والعبارات السّحرية التي كانت تعتبر أساسية لنجاح هذه العمليات" (أحمد الشتاوي، 1957، ص25).

وكان السّحر يجري مجرى الدّم في حياة المواطن المصري البسيط الذي لم يكن يأكل أو يشرب أو يخلد للنوم إلاّ بعد ترديده لتعاويذ وصيغ سحرية خاصة. ويقال أن أسواق مصر كانت تعجّ بالسّحرة، وكان السّحر حكرا ووفقا على الملوك والكهنة دون الطبقات الأخرى، وذلك حتى يسهل انقياد هذه الطبقات وانصياعها للطبقة الحاكمة باسم السّحر والدّين. ونظرا لارتباط الدّين بشؤون الحياة اليومية عند المصريين القدماء، فقد كان المعبد يسيطر على كل هذه الشؤون. لذلك كان السّحر إحدى الأمور التي اهتم بها المعبد، والشواهد التاريخية خير دليل على ذلك. وكان الكهنة يتوجهون في الليالي بعد مفارقتهم لمضاجعهم وإحساسهم بسكون المدينة وهدوئها إلى الصحاري، يتوسّلون الآلهة ويقومون بشعائر وممارسات وطقوس سحرية من تعاويذ وطلاسم وغيرها، وذلك بهدف تلبية مطالبهم وصحّة سحرهم. ومن مبلغ عناية المصريين القدماء بالسّحر، أنهم أفردوا رسوما وطقوسا وتعاويذ خاصة، يحدث في الكثير من الأحيان أن يخلطوها بالوصفات الطبية دفعا للأمراض، وطلبوا للاستشفاء. يقول كازينوف "الطقس بصفة عامة سحريا كان أم دينيا هو فعل رمزي والرمز له علاقة بما يرمز له، كلاهما يرتبط بالمشاعر والأفكار"

(Cazeneuve jean, 1971, p149) هذا ما يفسر الإعتقادات في بعض الطقوس السحرية عند المصريين القدماء. كان الكهنة يمارسون السّحر ويباشرونه بعد دراسة مستفيضة للكتب المقدّسة، وكان الغرض من الاستعانة بالسّحر هو الحماية من المرض، وتجنّب الموت قدر الإمكان، والوقاية من مختلف الأسقام وحتى طلبا للبركة والتوفيق، وتجنّبا لأشياء عديدة. حتى أن العضّة التي يمكن أن يتعرض لها الفرد من طرف حيوان ما، كان و للسّحر دخل فيها لإحداث معجزة من معجزات الشفاء حسب اعتقادهم. ويجب الإشارة هنا إلى أن مفهوم السّحر في الحضارة الفرعونية القديمة كان يحمل معنى آخر غير الذي يحمله اليوم، فكان يقصد بالسّاحر الإنسان العالم بأشياء الحياة والآخرة، من مبدأ إيمانهم بوجود حياة أخرى بعد الممات. "كما شملت الممارسات السّحرية في مصر القديمة شعائر تقام على الأواني والألواح والجلدان، ثم كتابة مضامين غامضة لا يمكن للعامة تفسيرها أو معرفة معانيها. وقد اشتهر السّحرة أيضا بتسخير الجان والشياطين، وهو ما يسمى بالسّحر الأسود في تشييد المباني الضخمة مثل الأهرامات والمعابد، بحسب ما ذكر بالكتب والزوايا القديمة التي تحدثت عن الحياة الفرعونية" (وكالة الصحافة العربية، -Middle.east (online.com

4- الحضارة الهندية:

تعتبر الهند القديمة من أكثر الحضارات إيماناً بالأساطير، وأكثر الأمم تحفيزاً على ظهور الأبطال والشخصيات الخرافية. كما تعددت بها المذاهب التي رسخت العديد من المعتقدات والطقوس في نفسية الأفراد. وارتبطت دياناتهم بالسحر ارتباطاً وثيقاً. كما آمنوا بالتنجيم، فادّعوا معرفة الغيب والتنبؤ له، ومقاومة الحيوانات المفترسة وتسخيرها لخدمتهم، إضافة إلى قدرتهم على جعل الفرد يسترجع حيويته وقدرته التي قلّت، لذلك اختلط الطبّ بالسحر عندهم.

5- الحضارة اليونانية:

رغم أن اليونان كانت مهد الفلسفة والعلم، إلا أن ذلك لم يمنع اليونانيين من المعتقدات وممارسة بعض الطقوس "قال زيللر وهو أعمق وأدقّ من كتب في الفلسفة اليونانية أن الفيلسوف أمبيدوقليس كان يعتقد في نفسه القدرة على السّحر، فذكر أن لديه القوة على مداواة الشيخوخة والمرض، وعلى إثارة العواصف أو تهدئتها، وعلى استئزال المطر أو حبسه بل وعلى استدعاء الميت إلى الحياة الثانية" (عمر سليمان الأشقر، ص34).

6- الحضارة الرومانية:

"كان الطبّ القديم عند الرومان خليط من التقاليد الدينيّة والسّحر، كالتعبد للآلهة أو رؤية المريض لبعض الحيات والكلاب المقدسة لإبعاد المرض عنه، وحتى في نهاية الحضارة الرومانية انتشرت الخرافات وتقهقر الطبّ" (سمير يحيى الجمال، 1997، ص312). طالما دُعِمت الأسطورة السّحر عند الرومان، إذ اعتقدوا أن أرواح الأبطال تظلّ تحوم حتى تنتقم من قاتليها، كما اعتقدوا بوجود الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة، حتى أنها تجسدت في آدابهم وفنونهم. "ومن جملة المعتقدات الرومانية كانت عبادة عناصر الطبيعة، وعبادة الحيوان (الطوطمية) واعتقدوا بالسّحر وبالمعجزات والخرافات والمحرمات" (محمد بديع رسلان، 2004، ص28).

رابعا: حكم السحر في الديانات الثلاث:

1- الديانة اليهودية:

"لقد أمرت التوراة بني إسرائيل بقتل السّحرة، حيث جاء في التوراة : لا تدع ساحرة تعيش" (سفر الخروج). ولقد كان اليهود يتقنون فنّ السّحر ويمارسونه بكثرة كما أشارت إليه معظم المؤلفات التاريخية المهمة بهذا الشأن. ولم يكن هذا الأمر حكراً على الطبقة العامة، بل حتى الطبقة الحاكمة والمتعلّمة. "وكان التلمود ممتلئ

بطقوس السّحر والشعوذة والعرافة، ومن الخرافات المرتبطة بالسّحر التي يذكرها التلمود أن بعض الحاخامات اليهود كانوا قادرين على خلق الإنسان والبطيخ، واستشرى تعلق اليهود بالسّحر حتى بلغ الأمر بهم إلى ترك الشريعة المنزلة ونبذها والتعلق بالسّحر في كلّ شأن من شؤون حياتهم" (عمر سليمان الأشقر، ص37).

2 - الديانة المسيحية:

قبل اعتناق شعوب العصور الوسطى الديانة المسيحية، كانوا يؤمنون بكلّ ما خلفته المعتقدات الدينية، التي انتقلت إليهم من الحضارات اليونانية والرومانية، لذلك كان إيمانهم بالسّحر قويًا. ولكن بعد اعتناق المسيحية جرّم رجال الكنيسة السّحر، واعتبروا كلّ من يزاوّل هذا الفعل قد ارتكب خطيئة كبرى. وذلك لأنهم اعتبروا السّحر منبعث من الشيطان، ونظرا لانتشار السّحر قرّرت الكنائس محاكمة السّحرة والساحرات وحكمت بحرقهم حتى الموت.

3- السّحر في الإسلام:

لقد عرف العرب السّحر قبل مجيء الإسلام بأزمان غابرة، ومارسوه في حياتهم اليومية، كما عرفوا العرافة والكهنة الذين كانوا يترددون كثيرا عليهم لتيسير أحوالهم ومعرفة أمور مستقبلهم. لما كان يوهّمهم به هؤلاء العرافين والكهنة.

" نجد في تاريخ العرب أخبارا تدلّ على أن العرب عرفوا السّحر الذي عرفته الأمم الأخرى، ومارسوه كما مارسته تلك الأمم حماية لأرواحهم وأموالهم وبلادهم، ولكن العالم بتاريخ العرب يعرف انه لم يكن للعرب عناية كبيرة في صناعة السّحر كما هو الحال عند الآشوريين والسريانيين والمصريين واليونانيين وجلّ عنايتهم كانت بالكهانة والعرافة" (عمر سليمان الأشقر، ص44) " وكان العربي الجاهلي يؤمن بروح الحيوان وروح النبات فكانوا إذا ظلّ فيهم الرجل في الفلاة، قلب ثيابه وحبس ناقته، وصاح في أذنها كأنه يومئ إلى إنسان وصفق بيديه: الوحا الوحا التّجا التّجا... ثم يحرك ناقته فيتهدي" (نبيلة إبراهيم، 1994، ص91).

إن معتقدات العرب كانت كثيرة أهمها الاعتقاد بقدرة بعض الحيوانات وأرواحهم، كما أنه في بعض القبائل العربية كانوا يقدمسون بعض الحيوانات كالغزالة فلا يأكلون لحومها لإيمانهم بروحها وقدرتها الباطنية.

" وقد عرف العرب نوعا من السّحر والذي يقوم على المشاركة، ومثال ذلك أنهم كانوا إذا اشتدّ عليهم الجذب واحتاجوا إلى الأمطار، يجمعون لها بقرا معلقة في أذانها وعراقيبها السّلع والعشر) وهما نوعان من الأشجار، خشبها شديد الاحتراق) ويصعدون بها إلى جبل وعر، ويشعلون فيها النار ويضجّون بالدعاء

والتضرّع، وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصل لها إلى نزول الغيث، وكانوا أيضا إذا لم يجبوا رجوع شخص أوقدوا خلفه نارا ودعوا عليه ويقولون أبعد الله وأسحقه، وأوقدوا نارا أثره" (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نقلا عن نبيلة إبراهيم، 1994، ص94).

كما كان العرب الجاهلون " يعلقون على أنفسهم كعب الأرنب، ويقولون أن من فعل ذلك لم تصبه عين ولا سحر، وذلك لأن الجنّ تقرب من الأرنب لأنها ليست من مطايا الجنّ لأنها تحيض، كما كانوا يزعمون أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة فعلق عليه سنّ ثعلب أو هرة أو حيض سمرة آمن فإنّ الجنية إذا أرادته لم تقدر عليه" (نبيلة إبراهيم، 1994، ص123).

" والمعروف كذلك لدى الكثير من الشعوب أن صليل الأجراس أو جلجلة الحلبي تخيف الروح الشريرة ومن تم العرب كانوا يعلقون الحلبي على الملسوع، ويتركونها عليه سبعة أيام ويمنع من النوم" (نبيلة إبراهيم، 1994، ص90)

ولكن مع مجيء الإسلام عقلن المعتقدات وحرّم السّحر. وقد ذكر السّحر في العديد من الآيات القرآنية وأقرت بوجوده، كما أقرت أنه من فعل الشيطان وأن صاحبه لن يفلح في الدنيا والآخرة لقوله تعالى " واتبعوا ما تتلو الشياطين على مللك سليمان وما كفر سليمان ولكنّ الشياطين كفروا يعلمون الناس السّحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنّما نحن فتنّة فلا تكفر فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلّمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون" (الآية 102 سورة البقرة). وقد ورد في الآية الكريمة كيف أن السّحر يضرّ بالناس وينشر الفتنة بينهم، وكلّ ما يشنت جمع المسلمين حرّمه الله تعالى. كما ورد في موضع آخر من القرآن قوله تعالى " فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السّحر إن الله سيبيطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين" (الآية 81 سورة يونس). كما ورد في قوله تعالى " وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنّما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح السّاحر حيث أتى" (الآية 69 سورة طه) وفي هذه الآية قطع جازم بلا النافية أنه لا يمكن للسّاحر أن يجد النجاح في أفعاله. وقوله أيضا " يحيل إليه من سحرهم أنّها تسعى" (الآية 66 سورة طه) وفي هذه الآية يقين بأن السّحر ما هو إلا مكر وخداع، يوهم السّاحر به الآخرين ويجعلهم يتخيلون أنّها حقيقة ولكن ما هو إلا خيال.

كما نهى الرسول الكريم (ص) عن السّحر وبين أنه محرم في قوله (ص) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال " اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال الشّرك بالله والسّحر وقتل النفس...". ويظهر مما سبق أن الشريعة الإسلامية حرمت السّحر والدليل على ذلك ما ورد في القرآن والسنة.

وعند التطلّع على الديانات الثلاث يظهر أن كلّ الشرائع اتفقت على حرمة السّحر لما ينتج عنه من ضرر يصيب الفرد ويعود على المجتمع بالسوء.

خامساً: السحر في رؤى بعض المنظرين:

لقد عرف التفكير البشري مراحل عدّة عبر مختلف العصور التاريخية، جعلت الكثير من المفكرين يبلورون مجموعة من الرؤى المتباينة حول طبيعة هذا التفكير، ولعل بداية التفكير الإنساني ربط الدين بالسّحر واعتبر الطقوس والمعتقدات أهم ما يميزه " يتكون الدين في شكله من ثلاثة مكونات أساسية هي المعتقد، الطقوس والأسطورة" (فراس السواح، 1994، ص193) وأول نقطة من التفكير الإنساني تتمثل في الإنسان البدائي الذي يعتبر السّحر صورة من صور الدين، ويعتبر الطقوس جوهر السحر، وكان الاعتقاد السائد عند هذه المجتمعات هو أنه يوجد قوة مقدّسة يمتلكها السّاحر تستطيع أن تتحكم في العالم . وسنحاول التطرّق لأهم الإسهامات التي اهتمت بهذا الموضوع:

1- النظرية التطورية:

والتي أخذت على عاتقها مهمّة رصد أكبر قدر ممكن من المعارف والمعلومات المتعلقة بالشعوب البدائية ومحاولة معرفة طبيعة تفكيرها، خاصة إزاء قضايا متعلقة بالسّحر، ومختلف الطّقوس الممارسة آنذاك وأهم العادات والتقاليد المرتبطة بهذه الطّقوس. كما اهتم رواد هذه النظرية أيضاً بالتنقيب عن معالم التقدّم عن الحضارات القديمة، وكيف تمكنت هذه المجتمعات الانتقال من البساطة في العيش، إلى حدّ بلوغها مراحل التعقيد " إذ من خلالها تمكن الفكر الغربي توصيف طبيعة الشعوب البدائية في ضوء مفاهيم التقدّم والنمو التدريجي الذي يبدأ من البسيط إلى المعقد " (أحمد أبو زيد، 1995، ص30) . كما اكتشف رواد هذه النظرية أيضاً أن هذه المجتمعات تسير نحو التقدم دائماً، الأمر الذي دفعهم إلى الاهتمام بدراسة التطور الثقافي، والبناء الحضاري لهذه الحضارات.

ويعتبر أوغست كونت رائدا من رواد هذه النظرية والذي اهتم بتقسيم مراحل تطور الفكر الإنساني إلى 3 مراحل:

- المرحلة الحسية : أو المرحلة اللاهوتية مرحلة تركز على الوصف أكثر من الفهم وتعتمد لبلوغ ذلك وتحصيل المعارف على الحواس.
- المرحلة الفلسفية التأملية: أو المرحلة الميتافيزيقية أين بدأ الإنسان التفكير في أمور الحياة والموت وأصل المخلوقات والكائنات والخلود وغيرها من الأمور المشابهة.
- المرحلة التجريبية : أو المرحلة الوضعية أبلغ مراحل التفكير البشري أين أصبح الإنسان يعتمد على الفكر والعقل بالدرجة الأولى في تفسيره لمختلف ظواهر الحياة تفسيرا علميا منطقيا بعيدا عن اللاهوتية والميتافيزيقا مع إقامة الدلائل والحجج وإدراك ما يجمع هذه الظواهر من روابط وعلاقات بغرض الوصول إلى تنظيم قوانين ونظريات بناءة.

في المرحلة الأولى التي اقترحها كونت كانت بمثابة البدايات الأولى لطرح التساؤلات والإجابات عن المعارف المجهولة، وفي هذه المرحلة استعان الإنسان لتفسير مختلف الظواهر وتأثيراتها بجملة من المعتقدات والأساطير الخرافية التي لا تخضع إلى العمل أو أي ضوابط علمية، لذلك تخيل وجود قوى غيبية خفية، بما فسر ما يحدث في الحياة.

وحينما أدرك هذا الإنسان كثرة التبعات السلبية لهذه الاعتقادات، انتهى إلى التفكير بتحرير العقل من القيود الأسطورية التي نسجها وحبكها في المرحلة اللاهوتية، وكانت هذه بمثابة النقلة إلى المرحلة الثانية الميتافيزيقية، والتي بنهايتها يكون فيها العقل قد حقق نتائج مهولة وعظيمة، تحوّل له مكانا لولوج المرحلة الوضعية أسمى مراحل التفكير الإنساني، أين تجاوز فيها الإنسان سطوة المعارف الجاهزة، وانتهج قواعدا ترتكز على العقلانية والمنطق والاستكشاف، بما بلغ الإنسان أوج تطوره وتقدمه الذي افتقده في المراحل السابقة من مراحل تفكيره. "كما أن تايلور رأى أن الأساطير تطوّرت مع حياة الناس من البدائية الوحشية حتى الوصول إلى المرحلة الحضارية، وأن حيوية الطبيعة وتقمص الأرواح لكلّ الظواهر المحيطة بالإنسان آنذاك دفعه إلى النظر إلى ظواهر الكون مثل الشمس والقمر والنجوم والنّار والزلازل والبراكين والرياح باعتبارها كائنات روحية حيّة تعجّ بالحياة مثلها مثل الإنسان وهو ما يجعله يصيغ مجموعة من الحكيم الخيالي حولها" (جاك لومبار، 1977، ص 67-70) هذا الأمر جعل تايلور يعتقد بأن الصلوات التي كان أفراد الشعوب القديمة

تقوم بها استرضاء للأرواح هي التي كانت تحتم بحمايتهم ورعايتهم، وأن هذه الأرواح حسب اعتقاد هؤلاء لم تكن مستقرّة في مكان معيّن، بل كانت صفتها التنقل وتحافظ على هذه الصّفة حتى بعد مماتها، إلى جانب أنها كانت وراء إصابة الأفراد بالأمراض والفتن والجنون وغيرها " وحيث أن هذه الأرواح من وجهة نظره (تايلور) تمتاز بالتنقل، فإنه من غير اليسير أن يتمّ تدجينها أو تقييد حركتها، وهو ما يطلق عليه بالفتشيتة أي التعبد للأشياء التي تسكنها الأرواح إما التماسا لحمايته، أو تجنّبا لخطرها وضررها وهو ما نعتبره الحد الأدنى للدين" (علي سامي النشار، 1995، ص36). وعلى نفس خطى تايلور، نجد أندريه لانج الذي التمس نفس المحاولة السابقة، واعتبرها صحيحة بدليل اعتقاده أن الإنسان طبع الظواهر الطبيعية بمالة من الروحية والقداسة، وكانت السبب وراء نسجه لمجموعة هائلة من الحكايات والأساطير التي تبين مدى خوف الإنسان البدائي من الكثير من الظواهر الطبيعيّة، وجهله لمعظم حقائقها، فحينما غابت عن ذهنه الإجابات التجأ إلى تأليه الظواهر والحيوانات وغيرها، بعدما خاب ظنّه وأمله في مختلف القوى المجردة التي طبعته المرحلة الدينيّة، كون الأسطورة - حسب لانج - سبقها وجود الدّين، هذا الأخير الذي اعتبره لانج المحرك القوي لمشاعر الأفراد نحو اعتقادهم بوجود آلهة تسمو وتفوق قدرات الإنسان المحدودة والتّاقصة، والتي تجعل منه ساكنا وضعيفا وغير مستطيع لفعل أي شيء مقابل قوّة الآلهة. "لقد رأى لانج أن "وجود مثل هذا الاعتقاد آنذاك، كان يعدّ إيمانا نقيّا وطاهرا وخاليا من العكارة، ثم ما لبث هذا العنصر أن تلوّث فجاء العنصر الأسطوري" (علي سامي النشار، 1995، ص154). من أنصار هذه النظرية أيضا نجد جيمس فريزر الذي حاول في كتابه "الغصن الذهبي" أن يربط بين السحر والعلم المتعارضين مع الدين. فالإنسان البدائي لم يكن يعرف شيئا عن العلم وعلمه الوحيد تجسد في السحر الذي اعتبره كل من فريزر وتايلور بالعلم الزائف أو الكاذب لأنه علم لا يمت بصلة بالواقع بل بالخيال وما وراء الطبيعة. ولقد حاول الإنسان البدائي فهم العالم وما يحيط به من خلال السحر، وقد اعتبر فريزر أن البشريّة خلال مراحل تطوّرها مرّت بمراحل ثلاثة رئيسية، في مقدمتها مرحلة السّحر ثم الدّين ثم العلم، وأن السّحر يمثّل بالنسبة لهذه المراحل الوعي الأولي والبدائي للإنسان الذي نزع إلى استعمال طلاسّم وتعاويز ورموز تعينه في تقرّبه للآلهة والقوى الخفيّة التي تتحكم في مصيره، لذلك اعتبر فريزر أن السّحر يسبق الدّين، ثم تأتي مرحلة محاولة استرضاء هذه القوى الكامنة والآلهة. وذلك بالإكثار من تقديم القرابين والصلوات ونفس الأمر بالنسبة للعلم. فتتطبق عليه نفس أحكام السّحر، ما جعلهما في مصاف واحد عند فريزر غير أن الدّين يفوقهما مقاما بسبب احتكامه إلى

قوى خارقة، ولكنّها عاقلة تتحكم في زمام العالم على عكس السّحر والعلم اللذان يرجعان إلى قوى غير عاقلة.

ولكن في الوقت عينه هناك اختلافات ما بين السّحر والعلم، من حيث أن المعتقدات لا يمكن اختبارها مخبريًا وعلميًا مثل الظواهر الطبيعية. أما أشكال السّحر دائما من خلال منظور فريزر، فإنّها تتحدّد من خلال مبدئين: مبدأ التشابه والذي يعني التّشبيه يشبه التّشبيه، مثلا: إذا ما تمّ صنع دمية شبيهة بالإنسان العدو ومن تم قتلته، فإن نفس المصير سيلقاه العدو. أما المبدأ الثاني فإنه يعتمد على عملية الاتصال والتواصل، من حيث المفعول أي استمرار التأثير الموجود بين الأشياء المتّصلة حتى بعد انفصالها عن بعضها البعض. وهذين المبدئين في نظر فريزر، يشكلان قانون السّحر الذي كان معمولا به لدى المجتمعات البدائية، وأن هذا التفكير البدائي هو الذي مهّد لاحقا للوصول إلى العلم، كون المجتمعات القديمة خبرت الحياة وكانت لها وقفات وملاحظات حول ظواهر الحياة، وكلّها تعدّ الأساس في بلورة التفسير العلمي فيما بعد. أما الفرق الذي أقرّ به فريزر فيما يخص ثنائية السّحر والدين، هي أن الأول يتركز جملة من المعتقدات والشّعائر والممارسات، التي تسعى للاتصال بكائنات غيبية، عن طريق تعاويذ مبهمّة مشفرة، وكان الإنسان البدائي يستعملها في اتصاله المباشر مع هذه القوى، بخلاف الدين الذي يستعين بعبارات ولغة مفهومة للدلالة على الأشياء، "يقوم الدين على الاعتقاد في الكائنات الروحية أو الإلهية والأرباب، بينما يتألف السّحر من الأعمال والممارسات والشّعائر التي تتصل بالكائنات الأخرى" (فريزر سير جيمس، 1971، ص48). ومع ذلك أقرّ فريزر بأسبعية السّحر على الدين، لا لشيء، سوى لأن السّحر في نظره مهّد لظهور الدين في مرحلة لاحقة "إنه وفق هذا الطّرح فإن فريزر يسلم بأن الإنسان آنذاك تحوّل عن السّحر، واخذ يدور في فلك الدين، وهو ما يعني أن السّحر كان سابقا على الدين، بل ويعدّ أول أنواع الدين." (فوزي العنتيل، 1978، ص147)

"كما قام ماريت بتطوير النظرية الأرواحيّة وأضاف إليها فكرة المانا، التي عرفتها العديد من المجتمعات البدائية بصفتهها قوّة سحرية خفية أو طاقة روحية يمكنها أن تتجسد في شخص أو حيوان أو شيء أو مكان ذات قدرة على التحكم في الكون، وقد اختلف اسم المانا بين القبائل، فعرفت القبائل الهندية باسم واكان، أي السرّ المحرك للكون، "والمانا حسب اعتقاد تلك الشعوب البدائية، لها قوّة سحرية تختلف عن القوة الطبيعية التي عرفها البشر، لذا من المستحسن السيطرة عليها وتسخيرها لصالح الإنسان" (دينكن

ميشل، 1980، ص24). و"يرى ماريت أنه في أقدم العصور ما قبل الإحيائية لم يكن هناك تمييز بين الدين والسحر، لذلك يرى من الأفضل في صدد الكلام عن تلك الشعوب باستخدام تعبير السحري - الديني على الرغم من تفضيله للفظ مانا" (إيفر برتشارد، 1982، ص190).

2- النظرية الوظيفية:

لقد كان للمرحلة الوضعية الفضل الجسيم في التمهيد لولوج أفكار ورؤى جديدة أخذت على عاتقها مسؤولية تفسير وجود السحر في المجتمعات القديمة، وكيف كانت طبيعة هذه المجتمعات آنذاك، من بينها النظرية الوظيفية التي هي الأخرى عرفت أنصاراً وأسماء مجّدت هذه النظرية، واعتبرت أن المجتمع لا يقلّ فرقا عن بقية الكائنات الحيّة الأخرى، يشترك في جملة من الوحدات، حيث لكلّ واحدة منها وظائف معينة ومحدّدة، وأهمّ ما يجمع هذه الوظائف هو قدرتها على خلق علاقات غايتها التّواصل والتكامل البنائي. واعتبر رائد هذه التّظرية مالينوفسكي، أن مفهوم التّسق وأساسه يكون مبنياً على ارتباط أجزاء المجتمع ارتباطاً وظيفياً، وكان من السّباقي لإقامة بحوث ميدانية على شعوب بدائية بالاعتماد على الملاحظة بالمشاركة والتفسير العقلاني للظواهر الاجتماعية المختلفة، ومن تمّ سهولة التّعرف على ثقافة هذه الشّعوب التي تختلف من شعب لآخر. ولقد استعانت هذه الشعوب، حسب مالينوفسكي بالسّحر لسدّ الفجوة النّاجمة عن عدم قدرة الإنسان القيام بعمل معيّن، ومحدودية طاقاته إزاء هذا العمل، وحينما يستند هذا الإنسان ويستعين بالسّحر، فإنه يشحن بطاقة إيمائية كبيرة، تزيد من عزمه واعتقاده في فعالية السّحر ومقدرته على جلب النجاح لهذا الإنسان وأن هذه الفعالية لا تأتي بثمارها إلا إذا آمنت هذه الشّعوب بالأسطورة، التي تحقق للسّحر المصدقية والأصالة والصّحة، وتمنعه من التحريف ومن تمّ تقوي فعاليته. ومن ثمّ فإن مالينوفسكي اعتبر العلاقة بين الدين والسحر وليدة الظروف المعيشية التي أنتجت الحياة اليومية والتي جعلت الإنسان يعيش ضغوطات مختلفة حتمت عليه البحث عن مخرج تمثل في العالم الغيبي، لذلك يعتبر الدين والسحر متلازمين ولا خلاف بينهما، لأن كلاهما تشوبه المعجزات ومحاط بسياج من التابوهات. ومع ذلك يرى مالينوفسكي أن السحر له طقوس خاصة به مثل التعويذات أما الدين ونظراً لتعقيداته فهو يتجاوز الأمور البسيطة. وهو أمر مشترك بين جميع أفراد الجماعة.

أما إميل دوركايم، فقد اهتم بدراسة الظاهرة الدينية في تجلياتها وميّز في إطارها بين ثنائية المقدس والمدنس، "هذين النوعين كما كتب دوركايم إذا التقيا وتقاربا لا يمكن أن يحافظ كل واحد منهما على طبيعته الخاصة"

(Callois Roger, 1950,p20) وفي دراسته للظاهرة الدينية تحدث دوركايم عن مفهوم "الطوطم" الذي يتمثل في حيوان أو نبات تضافي عليه القبائل البدائية صفة القدسية لأنه في اعتقادها يمنح لها الحماية، ودوركايم يعتبر المقدس "مجموع الأشخاص والأشياء والأفعال التي الجماعة الاجتماعية قررت أن تضعها خارج المألوف والطبيعي" (Cazeneuve Jean,1991,p164) فيكون ذلك مبعث الصلة التكاملية التي تجمع الاثنين، حيث يحرم إيذاء هذا الطوطم . مما جعل دوركايم يعتبر أول أشكال الدين عند هذه المجتمعات هي الطوطمية، التي تعمل على توطيد أواصر المجتمع في جميع الجوانب "ولقد رأى دوركايم أن التصورات الجمعية تمثل لحمة الحياة الاجتماعية، أو هي بالأحرى عوامل تماسك الجماعة واستمرارها، وعلى ذلك فهو يرى أن الطوطمية تسبق الديانات، وحيث كان التقديس للرمز الذي يمثل الروح الثانية في كل أنحاء الكون، فهو تجسيد مادي وإسقاط للروح الجماعية وصورة العقل الجمعي في غيابه، لقد كان الطوطم رمزا لقوى غيبية مقدسة التفت حولها الجماعة ففرضت مجموعة من الأخلاقيات التي من شأنها أن دفعت إلى الإيمان بوجود قوى خفية تمارس سلطتها وضبطها عليهم" (شمس الدين الكيلاني، 1998، ص72). فأكثر ما كان يميز الطوطم عند هذه الشعوب هو اعتباره رمزا من رموز القوى الغيبية والخفية والمقدسة، أصبح يلقبها الاعتقاد الجماعي بضرورة وضع جملة من الأخلاقيات، تقوم بممارسة ضبط اجتماعيا وسلطة على هذه الشعوب. "المقدس هي هذه القوة المبهمة واللاشخصية الخيرة والمريية التي هي أصل كل قدرة كل سعادة وكل بلية، من جهة أخرى إنها وضعية فيها يتواجد الإنسان والمواد في إقصاء عن العالم المدنس" (Chelhod Joseph,1986,p35) وإذا كان اهتمام دوركايم قد انصب على دراسة الدين فإن اهتمامه بالسحر لم يأخذ لديه قدرا من ذلك الاهتمام لأنه يعتبر أنه يوجد فرق بين الدين والسحر، حيث ربط الدين بالمقدس أما السحر فربطه بالمدنس باعتبار أن الدين يعبر عن مشاعر جماعية يخضع الإنسان في إطارها لسلطة الضمير الجمعي، فهو يضم جملة من الممارسات والمعتقدات المرتبطة بأمور محترمة ومن ثم مقدسة. "فالدين وفقا لتعريفه نظام موحد من الاعتقادات والممارسات المتصلة بالأشياء المقدسة، والتي تعني الممنوع والمرفوض، وتلك الاعتقادات والممارسات التي تتوحد في أخلاق المجتمع الواحد تعرف باسم كنيسة وعلى الجميع أن يلتزم بها" (أحمد محمد جاد، ص13). "سبنسر كان قد شيد رؤية تستند على مساهمة الأرواح في تكوين الدين، وتعرف باسم نظرية المانيزم تعتقد أن أرواح الموتى التي كانت للسحرة والزعماء تلعب دورا محوريا في حياة أسرها السابقة سواء في الخير أو الشر" (فراس السواح، 1994، ص206).

جهود سبنسر لم تقف عند هذا الحد، بل تعدّتها إلى اعتقاد الإنسان البدائي في وجود نفسان واحدة ظاهرة للعيان، والثانية مستترة، مع الإيمان بقدرة هذه الأرواح على اختلافها: أرواح حيوانات، موتى، مظاهر طبيعية... على إلحاق الخير أو الضرر الذي يمكن تجنبه بإقامة الصلوات، وتقديم القرابين والهدايا، والوصول في نهاية المطاف إلى تأليه هذه الأرواح.

على غرار "دوركاييم" تمسك "موس" بالتفسير الاجتماعي في دراسة الإنسان البدائي، ورّكز أيضا على الظواهر النفسية والرمزية" الأمر الذي دفعه إلى الاهتمام بثلاث قضايا هي: الصلاة التضحية والسحر، إذ من خلالها أوضح أن كل أنواع الأضاحي ما هي إلا عملية تحويل من الخير الشائع إلى الخير الديني، وهو ما يجعل التضحية فعل ديني يتوسل بها لتغيير الحالة المعنوية للشخص الذي يقوم بتقديمها. إن "موس" حاول أن يفكك العناصر المختلفة في الفعل الأسطوري الديني، لكي يشخص من يقوم بتقديم الأضحية، وما يستعمله من أدوات في هذا الشأن، وأخيرا كيف يتم إقامة الاتصال بين العالم المقدس والعالم المقدم للأضحية بغرض إشباع الاحتياجات" (شحاتة صيام، ص27). وحاول موس أيضا توضيح أهم الاختلافات الكامنة بين كل من السحر والدين، فاعتبر هذا الأخير مرادفا للتضحية، في حين جعل السحر المسؤول على الضرر والأذى الذي يمكن أن يلحق بالإنسان وفضل استعمال مفهوم الأضحية، التي اعتبرها ظاهرة اجتماعية ومجتمعية بامتياز، على عكس السحر الذي يركز في نظره إلى حالات عاطفية أكثر منها شعائرية. وبالنسبة له " السحر يحتوي على أشخاص وأفعال وتمثلات: ونسمي ساحر كل شخص قام بأفعال سحرية حتى وإن لم يكن محترفا، ونسمي تمثلات سحرية كل الأفكار والمعتقدات المتعلقة بالأفعال السحرية في حين نسمي الأعمال التي ننسب إليها العناصر الأخرى السحرية الطقوس السحرية" Mauss (Marcel,1902,p10)

ويعتبر "موس" أن تقديم الأضاحي يراعي فيها مناسبات عديدة، والتي تختلف باختلاف الأغراض الكامنة وراءها، وكذا الوسائل المستخدة في سبيل بلوغ هذه الأغراض، كما أن هذه الأضحية تختلف حسب مستويين، المستوى الذاتي أين يحقق عبر الأضحية منفعة ذاتية تخص الفرد المضحي، والمستوى الجماعي الذي يتكفل بتحقيق مصلحة جماعية تعود فيها المنفعة إلى القبيلة أو العشيرة بأكملها.

3-5 النظرية الماركسية:

لقد اتفق الاتجاه الماركسي مع بعض مبادئ التنويريين في اعتبار أن أول بوادر العقيدة الدينية إنما مرده إلى خوف الإنسان وجهله لحقائق الطبيعة المتعددة، وأن الدين كظاهرة لا يمكن أن تكتمل إلا عند إحساس الإنسان بافتقاده سيطرته على قوى المجتمع، نتيجة ذبوع الاستغلال، وأمام حتمية طبقية المجتمع. لذلك اعتبر الدين نتاجا اجتماعيا وتعبيرا عن الاغتراب الذي يحس به الإنسان، إزاء القيود المفروضة عليه من طرف المجتمع الطبقي، الأمر الذي يرفع عن الدين قداسته، بسبب قهره للناس عن طريق إضفاء الشرعية على العلاقات الاجتماعية القهرية الموجودة في المجتمع، ومن ثم ضمان هذه المؤسسات ومحافظتها على تجسيد هذه العلاقات. " أما كوندراتنكو فلقد قسم العلاقات الاجتماعية إلى نوعين: الأول علاقة الناس ببعضهم البعض أما الآخر فهو العلاقة بين هؤلاء والطبيعة. وفي ذلك يرى أن العلاقة مع الطبيعة هي التي أوجدت الميثولوجيا التي جاءت مع بدايات الوعي الإنساني للكشف عن التفسيرات المعقولة للطبيعة الغائبة" (شحاتة صيام، ص 30-31). أما يوليوس ليس فلقد حاول الوقوف عند نقاط التشابه والروابط التي تجمع كل من الحضارات القديمة ومحاكاتها للممارسة الدينية، وتوصل إلى أن الثقافات القديمة كانت تستعين بالسحر كفن استعراضي بغية السيطرة على العالم. وأن هذا الفن الاستعراضي كان يسخر لاسترضاء القوى غير المرئية التي كان يعتقد في وجودها الإنسان الأول. ومن خلال هذه الآراء يتضح أن الفكر الماركسي إزاء الأسطورة والسحر، اهتم بتوضيح كينونة الأسطورة كشكل من أشكال الوعي البشري في مرحلة عرفت التفاوت الطبقي والاجتماعي المهيمن والمتشعب بتمتلات غيبية، وصلت عند فكرة تعدد الآلهة التي تحكمت فيما بعد في الشؤون الطبيعية والمجتمعية هذا من جهة، ومن جهة أخرى أشار الطرح الماركسي أن الاعتقاد في الأسطورة ومن تم السحر ارتبط ارتباطا وثيقا بضعف قوى الإنتاج لدى المجتمعات الأولى، ما تسبب في إغفال الإنسان القديم الوقوف على حقيقة الظواهر وجوهرها.

4- النظرية النبوية الوظيفية:

لقد ركزت الدراسات السابقة على العلاقة التي تجمع بين كل من الأسطورة والسحر والدين، وحتى العلم وحتى الأمور المتباعدة فيما بينهم، وراحت كل نظرية تفسر هذه الاختلافات من وجهة نظرها، ولم تسلم النبوية الوظيفية من هذا الاهتمام، وحاولت أن تفرض نفسها انطلاقا من بعض المكونات النظرية التي كانت تعرف بها، والتي أهلتها فيما بعد لخوض معركة على الأفكار السابقة، وذلك كله في سبيل إيجاد أفكار جديدة تبناها كل من ستروس وبارت، وأطلقا عليها اسم البنائية المنهجية هذه الخيرة حسب نظرها تركز

على الاستدلال الرياضي والمنطقي، والتي لا تستعين بالملاحظة في عملية التفسير، وإنما تكتفي بإرساء قواعد تعتمد فيها على التفسير الاستنباطي. "إن تناول البنيوية للأسطورة من خلال المنهج السابق، يأتي من اعتبار أساسي مؤداه أن الأسطورة هي بديل موضوعي ومعرفي شامل، يستطيع معالجة النظر في الكون، وي طرح إجابات تبتعد عن الفردية والاعتقادات البسيطة وتعدّد الآلهة، ولما كانت الأساطير القديمة هي رؤية العالم، فإنها أيضا هي الاعتقاد الديني بأنّ الأسطورة تعدّ شكلا متمما لبنية الدّين، وإن كانت لم تأخذ صفة الإلزام والإيمان" (رولان بارت، 1994، ص 57). لقد اهتم كما سلفنا الذكر ليفي ستروس بهذا النوع من الدراسات بدليل إقامته لأبحاث عن الأسطورة عند الهنود الأمريكيين، محاولا الكشف عن بعض خفايا التفكير الباطني لهذا الشعب والحكمة من وراء هذه الأساطير، من خلال دراسة أيضا الطقوس والعادات الممارسة آنذاك، والتي تنذر بصعوبة الفصل بين المكبوتات الدّاخلية و الضوابط الاجتماعية، بمعنى آخر حينما تتحرّر النفس البشرية من بعض القيود والضغط الاجتماعي المتمثلة في القوانين والنظم، فإنها تميل حينها وبكلّ أريحية إلى الإبداع في كل المجالات ومن ضمنها مجال الأسطورة. ولقد أوضح ستروس نوعين من الأسطورة: النوع الأول تميّزه الخرافة ولا وجود لرباط بين أجزائها، أما النوع الثاني فهي الأسطورة المنسّقة والمنظمة التي تحتكم إلى ترابط وتسلسل منطقي بين أحداثها، ما ينمّ عن وجود مجتمعات متجانسة، وأن من أكثر المهام التي خلقت لأجلها الأسطورة المتجانسة أنها جاءت معبّرة عن رغبة تلك المجتمعات في إيجاد حلول وإجابات عن الأسئلة والتناقضات التي غرق فيها الوجود الإنساني آنذاك. لهذا اعتبر ستروس الأسطورة رسالة قوية من مرسل مجهول الهوية، لكنه يعي تماما المرسل إليه، ألا وهو الإنسان البدائي المتوحش في ذلك العصر.

أما بارت فلقد اهتم هو الآخر بالدلالات التي تحملها الأسطورة، أهمها دلالة الاتصال وطبيعة اللغة التي تستخدمها لأجل بلوغ هذه الغاية. "فالأسطورة مقرونة بطريقة الاستخدام الاجتماعي لها وبما تحمله من مواد خام، ذلك الذي يحوّل الحقيقة إلى كلمات عبر التاريخ الذي يختار اللغة، فالكلام الأسطوري يأتي من خلال التاريخ الذي قام عليه عمل سابق، ويقضي وعيا دالا عليها، الأمر الذي يمكن أن يكون خطابا أو رسما أو صورا يحمل معنى معيّنا" (رولان بارت، 1994، ص 59). و"الأسطورة بهذا المعنى تصبح جزءا من السيميولوجيا التي تفرض دلالة معينة لها مضمون يكشف عن القيم والدلالات والعلامات والإشارات، إن اهتمام بارت بالشكل الذي يأتي عبر أي خطاب، جعله يدخل الإيديولوجيا والميثولوجيا في إطارها باعتبارها تدرس الأفكار في شكلها الكلّي، إن دخول الميثولوجيا والإيديولوجيا في إطارها الكلّي يأتي من خلال

افتراضها لوجود علاقة بين دال ومدلول، فالدال يشير إلى اللغة والصورة السمعية والذهنية، بينما المدلول يعني المفهوم، وأن العلاقة بين الدال والمدلول تشير إلى الكلمة التي تعبر بطريقة محسوسة عن هذه الذهنية" (شحاتة صيام، ص38).

الخاتمة:

لقد ارتبطت صناعة السحر في التاريخ القديم بالحكمة وكان السحر واستحضار الأرواح من الأعمال التي باشرتها المجتمعات المختلفة، ولقد خاض الإنسان منذ الأزل معركة ضارية في سبيل استئناس الطبيعة وإخضاعها لرغابته وطموحاته، ومن هنا كان منشأ البوادر الاعتقادية التي جعلته يفكر في تأليه مجموعة من المظاهر الطبيعية أو الحيوانات، والتي يسعى لاسترضائها عن طريق تقديم الأضاحي والقرابين والهدايا، لا لشيء سوى لاعتقاده أن هذا الكون تحكمه مجموعة من الأرواح الطيبة منها والخبثة، وحتى يضمن مجانية الأرواح الخيرة ومساعدتها له، أنشأ مجموعة من الطقوس والممارسات السحرية، التي بها يرتقي إلى ضمان استحسان الأرواح ومن تم الآلهة ورضاها عنه وكفّ أذاه عنه. ثم يأتي دور الديانات ووجودها في حياة الإنسان القديم، والتي لعبت دورا كبيرا في توجيه هذا الأخير نحو التوحيد، وذمّ تأليه الأشياء والظواهر، والالتفات إلى عبادة إله واحد، إليه تركز القوة والصمود والقدرة على فعل كل شيء.

ولقد كان للفتوحات الإسلامية الفضل الكبير في تعزيز فكرة التوحيد واستمالة الشعوب لديانة التوحيد. غير أن المتطلع على علاقة الأفراد بالسحر في زمن التطور التكنولوجي وعصر المعلومات، يجد مفارقات عجيبة، أهمها أن السحر كممارسة قديمة لا يزال ماثلا وصامدا، رغم اختلافه من حيث المظاهر والأشكال، ولكن الكثير من الطقوس العتيقة ما تزال تضرب بجذورها في عصر الرقمنة والمعلوماتية. لهذا بات أكثر من أي وقت مضى تكثيف الجهود والدراسات المنقبة عن كينونة السحر في المجتمعات المعاصرة وطبيعتها، والكشف عن حثياتها والأسباب الحقيقية الكامنة وراء بقاء مثل هذه الاعتقادات والممارسات في يوميات الفرد المعاصر.

قائمة المراجع:

المصادر:

القرآن الكريم:

1- الآية 102 من سورة البقرة

2- الآية 81 من سورة يونس

3- الآية 69 من سورة طه

4- الآية 66 من سورة طه

5- البخاري في صحيحه في كتاب الطب: باب أن من البيان لسحرا

6- عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المقدمة، ط4 دار إحياء التراث العربي،

7- سفر الخروج، الإصحاح 22

المراجع:

1- أحمد محمد جاد، المناهج الأنثروبولوجية في دراسة الأديان، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، مصر

2- أبو زيد، المدخل إلى البنائية، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ط1، القاهرة، 1995

3- أبو بكر الرازي، أحكام القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، دون سنة،

4- أحمد الشنتاوي، فنون السحر، دار المعرفة، ط1، مصر، 1957

5- ايفر برتشارد، الأناسة المجتمعية، تر حسن قبيسي، دار الحداثة، ط1، بدون بلد، 1982

6- جاك لومبار، مدخل إلى الأنثروبولوجيا، تر حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1977

7- دينكن ميشيل، معجم علم الاجتماع، تر إحسان محمد الحسن، دار الرشيد، وزارة الثقافة، بغداد، 1980

8- رولان بارت، الأسطورة اليوم في سحر الرمز، تر عبد الهادي عبد الرحمان، دار الحوار، ط1، اللاذقية، 1994

9- رانيا رجب شعبان، حقيقة السحر بين الموروث والمنصوص، مكتبة الشروق الدولية، ط1، القاهرة، 2004

10- رياض عبد الرحمان الدوري وعلي حسين فوج العامري، الساحرات في العراق القديم والثورات والثامود-2006، مجلة سومر، م53، 2005،

11- سامية حسن الساعاتي، السحر والمجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، القاهرة، 1980

- 12- سمير يحيى الجمال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر اليوناني والروماني، الهيئة العامة للكتاب، ج2، القاهرة، 1997
 - 13- شمس الدين الكيلاني، من العود الأبدي إلى الوعي التاريخي، الكنوز الأدبية، ط1، بيروت، 1998
 - 14- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، نقلا عن نبيلة ابراهيم، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، 1994
 - 15- شحاتة صيام، السحر أزمة العقل: الفكر والممارسة، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2009
 - 16- عمر سليمان الأشقر، عالم السحر والشعوذة، دار النفائس، ط3، الأردن، 1997
 - 17- علي سامي النشار، نشأة الدين، مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب، 1995
 - 18- فوزي العنتيل، بين الفلكلور والثقافة الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة، 1978
 - 19- فزاس السواح، دين الإنسان، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، منشورات علاء الدين، ط2، دمشق، 1994
 - 20- فريزر سير جيمس، الغصن الذهبي، دراسة في الدين والسحر، تر أحمد أبو زيد، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1971
 - 21- محمد الجوهري وآخرون، التراث الشعبي في عالم متغير، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 2007
 - 22- محمد زهير الحريري، السحر بين الحقيقة والخيال، دار الإيمان، ط1، دمشق- بيروت، 1985
 - 23- محمد محمد جعفر، السحر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، القاهرة، 1958
 - 24- محمد بديع رسلان، من أجل فكر عالمي موحد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2004
 - 25- نبيلة ابراهيم، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، 1994
 - 26- يوسف ميخائيل أسعد، السحر والتنجم نقلا عن: عبد الرحمان محمد العسري، سيكولوجية الخرافة والتفكير العلمي، الدار الجامعية، ط1، الإسكندرية، 2006
- القواميس:

مجلة أنثروبولوجية الأديان (المجلد 16 العدد 02 بتاريخ 2020/06/15)

ISSN/2353-0197

EISSN/2676-2102

1- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، باب السين والحاء، م3

2- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية، بالقاهرة ، م1

3- محمد بن علي التهانوي، كشف اصطلاحات الفنون، م2

المواقع الإلكترونية:

1- السّحر في مصر الفرعونية، علم وحماية: القاهرة من وكالة الصحافة العربية 2016 /09/11

Middle.east t-online.com

مراجع باللغة الفرنسية:

1- Bannefoy claud, science et magie, la nouvelle encyclopedie, librairie Hachette, France, 1964

2-CAllois Roger, l’homme et le sacré, edition gallimard, France,1950

3-Chalhod Joseph, les structures du sacré chez les arabes , edition maisonneuve et larose,paris,1986.

4- Cazeneuve jean, sociologie du rite, press universitaires de France, paris, 1971

5- Cazeneuve Jean, et si plus rien n’était sacré, institut perrin, 1991

6-Mauss Marcel, esquisse d’une théorie générale de la magie,1902, , publie dans l’année sociologique.